

العدد الثاني والعشرون / ذو القعدة 1440 هـ / تموز 2019 م

شارع المتنبي
واحة العلم والفكر والأدب

محتويات العدد

الأَثَرُ الْبُنْيَوِيُّ لِلْمَفَاهِيمِ فِي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ

هشامُ بن عبدِ الكريم البدرانيُّ

الأَثَرُ البُنْيَوِيُّ لِلْمَفَاهِيمِ فِـي تَكْوِيـنِ الشَّخْصِيَّـةِ



اللَّهُمَّ يَسِّرْ وَأَعِنْ يَا كَرِيمُ

الشَّخْصِيَّةُ وَالشَّخْصُ

الشخصية في اللغة من (شَخَصَ)، والشَّخْصُ، هو: سوادُ الإنسان وغيرهُ، يتميز للرائي من غيرهِ، وغالباً ما يطلق الشخص على سواد الإنسان القائم المرئي من بعيد، فتقول: رأيت أشخاصاً أو شخوصاً، وكأنَّ المرادَ صفة معينة وهيئة لها أثر، ومن المجاز: شخَّصَ الشيء إذا عيَّنَهُ، فالشخص الجسمُ المؤلف المركب المتميز عن غيره من الأشياء.

وأصلُ الشخص في الوضع اللغوي لِجُرْمِ الإنسان وجسمه، يقال: شخصُ فلان: جُثمانه، واستعمل في كل شيء ظاهر، يقال: شَخَصَ الشيءُ إذا ظهرَ. فالشخصُ ما يظهرُ به المرء من شكل وهندام، وما خُلق به من جسمٍ وجُثمان، فيعرف باسمه ونسبه، ويعرف بأوصافه في ذلك لا محالة.

ثم بعد ذلك يتميَّزُ الإنسان بأنماط سلوكهِ وتصرفاته، وما عُرف عنه من خلُق وفضائل، أي يتميَّز بأفكاره ومعتقداته؛ ومعاملاته وتصرفاته وأخلاقه على طريقة نمط ما يحمله من مدارك اجتماعية واعية أو مضطربة، فالشخصية هي شَخِيصَةُ المرء بما يتميَّز به حتماً.

وصار غالباً عندما يفكر الناسُ في الشخص، فإنهم ينظرون الى ما يظهر منه، باعتبار التأثير الذي يحدثُه فيهم من هيأة وشكل، وجسم

وجثمان، وهندام؛ وأيضاً ينظر بعضهم بشكل أكثر دقَّة لسلوكه وتصرفاته وأقوالهِ، كأن يرونـه شخصـاً مسـالماً منصـفاً، أو شخصـاً عـدوانياً ظالمـاً، فيحكمون عليه بأنه شخصية عادلة منصفة، أو شخصـية عدائيـة ظالمـة لا محالة.

وعن هذا الوضع اللغوي، والمعهود الـذهني، والاسـتعمال الـواقعي، عُرف أن الشخصيةَ، هي: مجموع الخصائص الثقافية والمعرفية التي يعتنقهـا الإنسان ويحملها ليعبِّر عنها في أنماط سلوكه، وهو يمارسُ مـا يعتقـده مـن قيم أخلاقية في القول والعمل، ويظهر به في الأوساط من طرائق السـلوك له عند تكييفه لدواعي المعايش، بما يميزه عن سائر الناس.

حتى قيل: إنَّ خيرَ الناس الـنمط الأوسـط، أي الجماعـة مـن النـاس أمرهم واحد على طريقة من الفكر والعمـل، وفي الحـديث: [خَيْـرُ هَـذِهِ الأُمَّةِ النَّمَطُ الأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي][(١)].

مُكَوِّنَاتُ الشَّخْصِيَّةِ

من الاستقراء والبحث والتفكُّـر، نجـدُ أنَّ الشخصـية في كـلِّ إنسـان تتألف من عقليَّته ونفسيتهِ، ولا دخلَ لشَكلهِ ولا جسـمهِ ولا هندامـهِ ولا غير ذلك، فكلُّها قشورٌ. ومِن السطحيَّة أن يظنَّ أحدٌ أنَّها عاملٌ من عواملِ

(١) أورده أهل اللغة والمعاني هكذا، ينظر: المفرادات في غريـب القـرآن للأصـفهاني، أساس البلاغة للزمخشري، ومختـار الصـحاح للـرازي، والقـاموس للفيروزآبـادي: مادة (شخص). وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: شرح الحديث (٧٤١٦).

الشخصية أو تؤثرُ على الشخصيةِ. والسبب في ذلك أنَّ الإنسان يتميزُ بعقلهِ، وسلوكهِ هو الذي يدلُّ على ارتفاعه أو انخفاضهِ.

ويرتبط سلوكُ الإنسان في الحياة بأفكاره عنها، وتتكيف بحسب مفاهيمه عنها ارتباطاً فكرياً حتمياً وتكيفاً لا ينفصل عنهما؛ لأنَّ الإنسان يكيِّفُ سلوكَهُ وتصرفاته تجاه الأشياء بما عنده من فكر عنها وعن الحياة؛ والمفهوم هو معنى الفكر في مجريات الاعتقادات والتصرفات، فمفهومهُ عن شيء يحبه وعنده مفهومُ الحب عنه، يجعله يتصرف بسلوك غيرهُ تجاه شيء لا يحبه، أو ليس عنده أيُّ مفهوم عنه؛ لذلك كان سلوك الإنسان في الحياة إنما هو بحسب مفاهيمه عنها حتماً.

والسلوكُ هو أعمال الإنسان وتصرفاته التي يقوم بها لإشباع حاجاته العضوية أو غرائزه بما عنده من فكر عنها بوصفها شيئاً يراد إشباعهُ، وما عنده من فكر عن الحياة ينظِّمُ عملية الإشباع به على طريقة ما يراد بوصفه الإنساني لا الغريزي المجرد، فالسلوك الإنساني يسير بحسب الميول الموجودة عنده مربوطاً بدوافعها الفطرية وضوابطها الفكرية لا محالة.

وعلى ذلك كان قِوامُ شخصية الإنسان بما عنده من نمط حركة الفطرة بالفكرة حسب تشكُّلهما في سلوكه، وبهما تتشكَّلُ شخصيته، فتكون مفاهيمه وميولهُ هما قوام شخصيته وجامعُ أمرِها سلوكهُ الذي يظهر به بين الناس.

ولأجل ذلك عند إرادتنا تغيير سلوك الإنسان المنخفض، ونجعله سلوكاً راقياً، لا بد أولاً من تغيير مفهومه عن الأشياء والحياة بتغيير زاوية الفكر في الواقع ورفع مستوى الفكر لديه إلى التفكر على الطريقة الصالحة

الصحيحة بما يجب، فالفكر المرتفع هو الذي يبني الشخصية بناء معرفياً منتجاً ويجعل سلوكه متماسكاً بضروراته حتماً.

دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3].

السُّلُوكُ وَالشَّخْصِيَّةُ

ليس كلُّ تصرفات الإنسان تعبِّر عن السلوك المطلوب المعتبر على وفق طريقة واضحة منضبطة بقيمها الأخلاقية وبإرادة واعية ينتج عن إدراك سليم ومركَّز لفكرتها، فمن الناس من يتصرف بأنماط من الأعمال لا على هدى أو ميزان من أفهام واحدة الفكرة، فيقع في الاختلاف والتناقض لا محالة.

والمراد بالسلوك النمط من التصرفات الْمُبِينُ عن فكرة معينة دقيقة وطريقة محددةٍ واضحةِ المعالم.

والسلوك في اللغة: إدخال الشيء في الشيء، كإِدْخَال الْخَيْطِ فِي الْمَخِيطِ، يقالُ: سَلَكَهُ فَانْسَلَكَ، أي أدخله فيه فدخل، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[4]. والسلوك النَّفَاذُ في الطريق

(١) البقرة / ٢١٩-٢٢٠. (٢) النحل / ٤٤. (٣) الرعد / ١١.

(٤) الشعراء / ٢٠٠.

والدخول فيه؛ أو التَّسخيرُ أو التخييرُ أو التوفيق أو الجزاءُ. فيأتي السلوكُ بتقيُّدِ المرء بالطريقة من ذلك على السبيل المعين، قال الله تعالى:﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[1].

وعلى هذا كان السلوكُ هو أكثر من الفعل، لأنه تعلق بصفة الفعل على نمط الدخول والنفاذ والهيأة للعمل المعين بطابعه الفطري أو الفكري من التسخير أو التخيير لا محالة. فلا يُطلق السلوك على أيٍّ فعل أو عمل بإطلاق، لأن الاعتبار بالسلوك لكيفية الأداء الفعلي والإنفاذ العملي حين القيام به بوصفه فعلاً بالفطرة والتسخير أو بالفكرة والتخيير؛ فهو عملٌ يجري بطريقة معينة على هدى منهما، أو أنه نمط فوضوي اكتنفه التيه أو الضلالة لا محالة.

ومن النظر والبحث والدراسة والاستقراء، نجدُ أنَّ مفهومَ السلوك يقعُ على أربعة أنواع: السلوكُ الجِبِلِّيُّ، أو الوجداني، أو الحسِّي؛ والسلوك الفكري على طريقة العقل في الإدراك السليم للعلم والوعي عليه في مجالات العمل.

الأَوَّلُ: السُّلُوكُ الجِبِلِّيُّ:

ينتظمُ السلوك الجبلي بالفطرة، وسبيله في الأحياء التسخيرُ، وهو نمطٌ من الفعل يفرضه نظام الوجود على الكائن الحي بالغريزة مباشرة، ولا يتأتى له أن يخرج عنه، كسائر الأفعال الجِبِلِّيَّة كالمشي على رجلين أو أربع أو الزحف على بطنه، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ

(١) نوح / ٢٠.

بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾(1).

وأيضاً كسلوك النحلة في بناء بيوتها على نمط هندسي معين لا تحيد عنه جماعة النحل، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾(2) وهكذا سائر الأفعال النمطية بمقاصد الغريزة والتسخير تشكل أعمالاً بأدائها المنتظم الخالي من الفكر والتدبير، وهو عند الإنسان كذلك، فيأتي من أبوين ويخرج من رَحِمِ أمه، فيكون وليداً ورضيعاً وطفلاً وصبياً وفتى وشاباً، وكل ما كان كذلك من الأفعال الخَلقية والخُلقية من السلوك الجبلي كالأشكال والهيئات.

الثَّانِي: السُّلُوكُ الْوُجْدَانِيُّ:

ينتظمُ السلوك الوجداني أو العاطفي بما يحرِّكه في الوجدان الشعوري من الواقع المثير، وطريقته في الإنسان الاستجابة لحركة الإحساس الغريزي والشعور الداخلي من غير تفكير بتدبر الأمور كما هي في الواقع على ما يجب، أي يتعامل مع المثيرات لحركة الإحساس الغريزي ومحفزاته لسذاجة أو بتفكير سطحي لا محالة.

ومن ذلك استجابة الإنسان لإشباع الجوعات من الحاجات العضوية والغرائز من غير النظر فيما يجب من الطريقة لها، فهو يتعامل مع الطاقة الحيوية للفطرة بمعزل عن الفكرة التامَّة أو باندفاع يتغلب فيه الشعور على

(1) النور / 45.

(2) النحل / 68.

العقل، والعاطفة على الفكر، قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]؛ فكادت تتغلب عاطفةُ الأمومةِ على فكرةِ الخطر من فرعون، لولا أن ثبَّتها اللهُ تعالى بالإيمان.

الثَّالِثُ: السُّلُوكُ الحِسِّيُّ:

يتنظمُ السلوك الحسي بطريقة المحاكاة للواقع على سبيل التلقين والتقليد؛ من غير إعمال الفكر فيما يجب، كسائر العادات والتقاليد والموروث، فهي تصرفات سلوكية أخذها الإنسانُ بالتلقين من غير فكر غالباً، أي بالمحاكاة لمن حوله وصارت لديه معان ينظر من خلالها وكأنها حقائق أو ثوابت من فكر، ومثاله في الحيوان كملاطفة القطة لربة البيت، أو تقليد الحيوانات للأصوات، بل حتى النطق كما في قسم من أنواع الطيور.

ومثاله عند الإنسان التأثير الاجتماعي للناس في وجود الأعراف والتقاليد وسائر الموروثات من العادات والعقائد التي لم تأخذ نصيبها من الفكر العميق وهي بعيدة عن التفكير المستنير لا محالة. قال الله تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[2].

وغالباً ما يألفُ الإنسان هذا السلوك الحسي النمطي بدواعي الكسل الفكري، والعادة تحت تأثير الرغبات والشهوات ودوافع الترف قال الله

(١) القصص / ١٠.

(٢) الزخرف / ٢١-٢٢.

تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[1].

ويتميَّز هذا النوع من السلوك بالخطورة؛ لأنه لا يتعامل مع الواقع بالفكرة ولا بالعاطفة، وغالباً ما يلجأ الى العناد والتكبُّر، قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2].

الرَّابِعُ: السُّلُوكُ الْعَقْلِيُّ:

ينتظمُ السلوك العقلي بالفكرة التي آمن الإنسان بها، وهو يباشرُ الأفعالَ بطريقة النظام المعرفي والثقافي المتكوِّن في عقليته، فيتدبر أمرَهُ بحسب ما لديه من أفهام عن الأشياء والحياة، بقوة أو ضعف، بقصد الحلِّ للمشكلات والرعاية للأمور بالاهتمام والحفظ والتدبير؛ فالسلوك العقلي تحكمهُ الفكرةُ بطريقتها في الحياة، فيقوى بقوتها فيه تصديقاً وتسليماً، ويضعف إذا أصابه الوهن في حمل الفكرة لا محالة، كلٌّ هذا يؤثر على الأداء العملي له بالفكرة وطريقتها، ويجعل له أنماطاً سلوكية وهو يتعامل مع الأشياء والعلاقات بسطحية أو عمق أو استنارة حتماً.

وعالجَ الإسلامُ سلوكَ الإنسان بالفكرة، فقال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3] وضبطَ هذا السلوك العقلي بالمعالجات من الفكرة فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[4].

---

(١) الزخرف / ٢٣. (٢) الزخرف / ٢٤. (٣) يوسف / ١٠٨.

(٤) الأنعام / ١٦١.

وأما من جهة الطريقة فقد عالج الإسلام حياة الإنسان والجماعة ونظَّم سلوك الإنسان بكيفية هذه الطريقة تفصيلاً فضلاً عن الإجمال، فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] وتفصيلاً قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[2].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِـي بـأَمْرٍ فِي الإِسْلاَمِ لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ؟ قَالَ: [قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَيُّ شَيْءٍ أَتَّقِي؟ قَالَ: [فَأَشَارَ بيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ][3].

نَمَطُ السُّلُوكُ الإنْسَانِيِّ:

يرتبطُ السلوك الإنساني الراقي بارتفاع الفكرة في حركة العقل وقـوة مفهومها في نشاطه بها لتنظيم حركة الذهن وضبط الطاقـات الحيويـة مـن حركة المشاعر والعاطفة تجاه الأشياء، وينخفض السلوك الإنساني كلما تـدنَّى الفكر في حركة العقل وضعف عن الاستقراء والاستظهار والاستحضار، أي ضعف عن قراءة الفهم الواجب من الشرع في الواقـع بـين الخلـق، أو وهنت إرادته عن استظهاره على الطريقة من الاستقامة أو غاب استحضـاره في الوقت المناسب قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾[4].

(١) الأنعام / ١٥٣.
(٢) هود / ١١٢.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: (١٥٤١٧) بإسناد صحيح.
(٤) طه / ١١٥.

ويلاحظُ هنـا أن السـلوك الجبلِّـيَّ، والسـلوك الوجـداني، والسـلوك الحسي، أنها أفعالٌ تجري بمعزل عن التفكير غالباً، أو يضعف عنها التفكير بالمطالب والمقاصد في أقلِّ تقدير، ولذا توصف بأنهـا أفعـالٌ، والفعـلُ مـا غابَ عنه القصدُ أو ضعف، أو تعذَّر أو كان مستحيلاً، لأنه هكـذا وُجـد الفعل في الكائن الحي كما هو الحـال في الأفعـال الجبليـة؛ ولـولا طريقـة الفطرة لَما سُمي سلوكاً، ولا يؤاخذ الإنسان على الأفعال الجبلية فيمـا لا تدخله الفكرة حتماً.

أو كان المرء يغفل في الفعل عن قصـد، كمـا هـو الحـال في السـلوك الوجـداني العـاطفي الـذي تغلبـه المشـاعر البريئـة أو تحيطـه النزعـات والشهوات، ودوافع الرغبة في الأمن والحذر من الخوف.

أو كان الفعل في مجريات الأمور يكون من الإنسان علـى غـير وعـي منه وإدراكٍ منتبهٍ، أو يُحدِثُهُ على السجية والبديهة من غير إعمال فكر، أو بإهمال الفكر فيه، كما هو الحال في السـلوك الحسـي؛ فكـلُّ هـذا يسـمى سلوكاً من جهة أنه كان يجب أن يكون على نمط من أمر الفكرة وطريقتها في الحياة، ولكنه لم يكن كذلك لعوامل ضعف في الإنسان أو لوهن إرادته عن مطالب الاستقامة في الأداء، ويؤاخذ الإنسان عليه لا محالة.

أما السلوكُ العقلي، فهو عملٌ لا محالة، لأنه يجري بقصد الفكرة عـن الأشياء والحياة ونظم طريقتها لإنجازه عملاً بمـا يحقـق الأهـداف ويـدرك الغايات، سواء كان جريانه بسطحية التفكير لعموم الفكرة أو بعمق يدرك معاني هذا المفهوم أو باستنارة تعبِّر عن قراءة واعية للفكرة وتبلور ناضـج لمفهومها، فيأخذ السلوك بُعدَهُ في الارتقاء على مسـتوى ارتفـاع الـتفكير،

فيوصف بأنه عملٌ، أو صناعة أو إتقان حسب ذلك لا محالة.

والإتقان في العمل أكثر من ذلك، لأنه غاية الجودة حين إجراء العمل بأداءٍ تامٍّ، استكمل ذاته في مناخ أسبابه واكتمال شروطه وانتفاء موانعه لتحقيق المطالب، قال الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1].

الْمَفَاهِيمُ وَالشَّخْصِيَّةُ

إنَّ القيمةَ الاعتبارية للإنسان تكمنُ في أخلاقهِ وتظهر في أعماله، ولذلك عندما يقال: إنَّ المفاهيمَ والميولَ هما قِوامُ الشخصية، وإنَّ السلوكَ هو الذي يدلُّ على ارتفاعه الفكري أو انخفاضه، فمعناه: أنَّ الأخلاقَ والأعمال هما من يعبِّر عن حقيقة الشخصية، وقدرة الفرد على تجسيد هذه المفاهيم والميول في أعماله بصدقٍ بيِّنٍ ووضوح تام والاستحضار والاستظهار في الأداء، فيعطي للفرد الاعتبار الاجتماعي بين الناس حتماً.

ولذلك مدحَ اللهُ تعالى رسولَهُ المصطفى ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] ولقد أخذ الرسول ﷺ عظمتَهُ من عظمة الرسالة والنبوة، وهما وحيٌ من الله تعالى، واستقامَ كما أُمِرَ فيهما، عن عائشة رضي الله عنها، سئلت عن خُلق الرسول ﷺ، فقالت: [كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ، يَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ][3]. وأرشدَ الرسولُ أُمَّتَهُ للعمل بأخلاق الإسلام في

(١) النمل / ٨٨.

(٢) القلم / ٤.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج ١٤ ص٦٢٢، وأخرجه مسلم في الصحيح: (١٧٣٩/ ١٣٩-٧٤٦).

شؤون الدنيا والدين، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ][1].

والأخلاقُ هي التعبير النفسي عن الأفكار التي آمن بها الشخص وهو يمارسها في سلوكه، فتكون الأخلاق بشكل مفاهيم لأفكاره في الذهن وميول لمشاعره في النفس، وهما يعبِّران عن مكنون عقليته ونفسيته، ويدفعهما الإيمان فيظهران في نمط السلوك لشخصيته بين الناس لا محالة.

وعن هذا تكون الأخلاقُ والأعمال ترجماناً للفكر الذي آمن به، وقد صبغت العقلية والنفسية بلونه، بوصفهما الأخلاقي، مفاهيماً تكيِّفُ السلوك وميولاً تثبتهُ حتماً. والصبغة هنا: الدين والملَّة، قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[2] فتظهرُ أعمال مفاهيم ما آمن به، على الشخص بحسب إيمانه، وكذلك تكون ميوله لا محالة.

أما ما هي هذه المفاهيم، وممَّ تتكوَّن، وما هي نتائجها؟ وما هي هذه الميول، وما الذي يُحدثها، وما هو أثرُها؟ فهذا يحتاج إلى بيان:

الفهمُ في اللغة العلمُ والفقهُ، فَهِمَ الشيءَ عَلِمَهُ، والفهمُ في العلم على ما يجب في العمل الفقهُ، والعلمُ: الإدراكُ، وهو تمثُّل الواقع في الذهن بوساطة الحواس والحكم عليه بدلائل المعلومات السابقة، وهو من غير إثبات الحكم على الواقع أو نفيه عنه تصوُّرٌ، وإذا لم يناسبْهُ وهمٌ، وإذا ناسبَهُ وأثبت الحكمَ على الواقع أو نفاهُ عنه معرفةٌ حتماً.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٢ ص٦١٢ (٤٤٢١).
(٢) البقرة / ١٣٨.

والفقهُ أخصُّ الفهم في العلم، لأنه العلم على سبيل الإثبات لما يجب في العمل عند قيام الظنون من دلائل المعلومات السابقة أو اشتباه الأمور في مجريات الأحداث؛ وهو في الشرع: العلم بما يجب للعمل من الشرع في الواقع بين الخلق، ومقتضى الفقهِ الإيمانُ بالعلم وللعلم في مجالات العمل.

ومن الدراسة والبحث والنظر، نجدُ أنَّ الفهم يتنوَّعُ بحسبه إنشاء وتأسيساً، وبناء وتكويناً، إلى خمسة مستويات:

الأول: الفهمُ اللغوي التصوري.

الثاني: الفهم العلمي العادي.

الثالث: الفهم المعرفي للعلم.

الرابع: الفهم الفكري المبدع.

الخامس: الفهم المستنير الملهم.

الأَوَّلُ: الْفَهَمْ اللُّغَوِيُّ التَّصَوُّرِيُّ:

المفاهيم هي معاني الأفكار بما هو أكثر من معاني الألفاظ، ولذلك يتأتى الفهم اللغوي بتلقي الخطاب كما هو في ذهن المخاطِب بحسب دلالته في اللغة؛ واللفظُ كلامٌ دلَّ على معان قد تكون موجودة في الواقع، وقد لا يكون لها وجود في الواقع، ولكن الخطابَ جاء بصورة متخيَّلة كما صوَّرها القائل لها؛ وأما معاني الأفكار فإنها تأتي بحسب دلالتها على الواقع وانطباق هذه الدلالة عليه، لا كما تصوَّرها قائلُها أو تخيلها فحسب.

مثال الفهم بالضرورة من اللغة، قول الشاعر نزار قباني رحمه الله حين يقول:

أَلْـوَانُ أَثْوَابِهَـا تَجْـرِي بِـتَفْكِيرِي جَرْيَ الْبَيَادِرِ فِي ذِهْـنِ الْعَصَـافِير
أَلاَ سَـقَى اللَّهُ أَيَّامـاً بِحِجْرَتِهَـا كَـأَنَّهُنَّ - أَسَـاطِيرُ الأَسَـاطِير
أَيْنَ الزَّمَانُ ؟وَقَدْ غَاصَتْ خِزَانَتُهَا بِكُـلِّ مُسْـتَهْتِرِ الأَلْـوَانِ مَعْطُـور

فهذا المعنَى الـذي صـوَّرَهُ الشـاعرُ للمسـتمع، خيـالٌ ذهنِـيٌّ ولـيس إحساساً بواقع، فهو إحساسٌ لصورة متخيَّلةٍ في وجدان الشاعرِ، ولا يتأتَّى للمرءِ مهما بلغَ من قدرة واعيةٍ أن يدركَ كيف تحـسُّ العصـافيرُ بالبيـادرِ، ولكنه ألبسَ إحساسَ العصافيرِ إحساسه بالأشياءِ ثُم عكَسهُ على إحساسٍ آخر لديه فصوَّر لنا معنى ذاقه بوجدانه في التعبير عـن محبوبتـه، ويتذوَّقـهُ أهله مـن الشـعراءِ والأدبـاء والْمُعجَـبين بالأسـلوب الأدبِـيِّ المسـتغرقين بالوجدانِ والمشاعر الملتهبة في خيالِ الشعراء وأتباعهم.

ومع أنَّ ألفـاظَ هـذه الأبيـات بمفرداتِهـا تـدلُّ علـى معنـى، ولكنَّهـا باجتماعها لا تدلُّ على معنى محسوسٍ حقيقةً، وإنَّما تدلُّ علـى صـورةٍ في مُخيِّلة الشاعرِ يعبِّرُ بها عن هيامهِ وإعجابه بمن يحبُّ. فجاء الفهم في مخيلة المتلقي على طريقة الفهم اللغوي في ذهنِ المستمع بمعزَلٍ عن الواقـعِ لِمَـا رسَمهُ الشاعر وحقيقته الحسية، وإنما استغرق في متعـة الـذوق الوجـداني لمعانيه المتخيلة في الشعور الذهني والعاطفة فحسب.

وهذا النوعُ من الفهمِ مطلوبٌ للتذوُّق والتمتُّع بالخيالِ الْمُجَنَّحِ البعيد عن أرضِ الواقع، أو الخيال الجامحِ الغريب عن أرضِ الواقع. وليس هذا النوعُ من الفهم اللغويِّ مطلوباً في مجالِ التفكير الجـادِّ الموضـوعي، الـذي يهدفُ إلى إنجازِ الأعمال وتحقيقها على أرضِ الواقع، وهو يقصـدُ الرُّقِـيَّ

والنهضةَ بالإنسان إلى تحمُّل الدورِ المناط به والمسؤول عنه.

الثَّانِي: الْفَهْمُ الْعِلْمِيُّ الْعَادِيُّ:

من الخطأ تقديرُ أن التصورات التي تحدث في أذهان كثير من الناس على أنها مفاهيم؛ لأن المفاهيم هي معاني الأفكار لا معاني الألفاظ، فمعاني الألفاظ تصورات قد يكون لها واقع وقد لا يكون لها واقع إلا في ذهن قائلها ومن تفاعل معه في خيالاته وتصوراته وأوهامه، فالشاعرُ حين يقول:

اَلْحَقُّ أَوْلَى مِنْ وَلِيِّكَ حُرْمَةً ... وَأَحَقُّ مِنْكَ بِنُصْرَةٍ وَكِفَاحِ
فَامْدَحْ عَلَى الْحَقِّ الرِّجَالَ وَلُمْهُمُو ... أَوْ خَلِّ عَنْكَ مَوَاقِفَ النُّصَّاحِ
وَمِنَ الرِّجَالِ إِذَا انْبَرَيْتَ لِهَدْمِهِمْ ... هَرَمٌ غَلِيْظٌ مَنَاكِبَ الصُّفَاحِ
فَإِذَا قَذَفْتَ الْحَقَّ فِي أَجْلَادِهِ ... تَرَكَ الصِّرَاعَ مُضَعْضَعَ الأَلْوَاحِ

فإنَّ هذا المعنى موجودٌ في الواقع ومدرك حسّاً، وإنْ كان إدراكهُ يحتاج إلى تفكير عميق واستنارة رؤية مؤمنة بقضيتها، فهو يريد نفخَ روح العزم في جماهير الأمة ويلهب مشاعرها لمعاودة مجدها بعمل راق تحركه كلماته الشعرية الرفيعة الذوق الحسي للفكرة لا محالة. وروح العزم في العمل تنطلقُ من الإيمان العازم على إمضاء إرادة الجمهور في النهضة بقومة الفكرة المنتجة للعمل المناسب حتماً.

ويلزمُ لحدوث المفاهيم ما هو أكثر من التصورات وحديث النفس بها، ويقتضي وجودَ أذنٍ واعية لما تسمع، وقلوب مبصرة لحقائق ما وعت؛

ومشاعر تتدفق لمعطيات الإدراك والوعي بعواطف يقظة متفاعلة مع مخرجات هذه المعطيات بإشاعة أجواء ما آمنت به بصدق الأداء وأمانته لا محالة، قال الله تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾(١). وما كان دون هذا المستوى من الفهم الفكري، فهو ضربٌ من التصورات أو المعلومات التي لا ترتقي إلى المعرفة.

وعن ذلك، كان الفهمُ بالضرورة العلمية؛ هو ضربٌ من الفهم اللغوي التصوري أو المعلوماتي الذي يتلقاه المرء من المحيط البيئي له، وذلك إذا لم يتحول من أفكار متخيلة في الذهن إلى حقائق لها واقع في حركتي العقل والقلب يظهر أثرهما في السلوك.

ويبقى هذا الفهم بشكله العادي غير المؤثر في الأوساط الاجتماعية ولا في حركة التاريخ إذا لم ينتقل إلى صفة مفاهيم ومقاييس وقناعات تحرك العقل إلى الفكر المنتج، وتحول النفس إلى الميول النبيلة بعدالتها ومروءتها، وتجعل السلوك عملاً أكثر مما هو وظائف رتيبة أو عادات أو تقاليد موروثة، مهما كانت جيدة فهي لا ترتقي بالمجتمع ولا تنهض به إلى الحضارة.

ولقد ذمَّ الشارعُ الحكيم الفهم التقليدي للعلم بالشكل التصوري الموروث والعادات من غير تفكر بحقائق ما يجب منها في الواقع لينظم الوسط الاجتماعي على السبيل الصالح الصحيح، قال الله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾(٢).

(١) الحاقة / ١٢.

(٢) الزخرف / ٢٢.

وأيضاً ذمَّ الشارعُ الحكيم تركَ التفكر على طريقة تحقيق المراد من الأفكار الجديدة كسلاً أو بطراً أو إهمالاً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

إنَّ الفهمَ العلمي لأجل العلم من غير تقصد الإيمان بما يجب منه في العمل ويجعله حتماً مقضياً، ليس مراداً لبناء الشخصية الإيجابية الفاعلة، وإذا وُجد هذا الفهم العلمي العادي يُحْدِثُ الشخصيةَ السلبيةَ التي تقعدُ بالأفراد والجماعات عن واجباتِ الوقت وضروراتِ ريادة الأمة إلى الحق لا محالة.

لأن هذا الضرب من الفهم الساذج الذي لا تدبير له، لا يقتضي الإيمان ولا يحتم العمل، فهو ضربٌ من التفلسف الفاسد غالباً، ولقد ذمَّهُ الشارعُ الحكيم، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

فهذا النوعُ من الفهم اقتصر على الجانب العلمي المحض، فبَنُوا إسرائيلَ حملوا التوراة بوصفها علماً، وفهموها بدلالاتها العلمية المحضة، من غير تدبُّر لمعانيها تدبُّراً يحولها في مجريات تفكيرهم إلى مفاهيم، فبقيت تدور هذه المعلومات في أذهانهم بوصفها فكرةً مجردة عن المتطلبات الإيمانية لحتمية العمل، أو أنها أفكار متخيلة في أذهانهم لا حقائق ملموسة في الواقع، فلم يتولد في أذهانهم التفكير المنتج الذي يحوِّل الأفكار إلى قناعات بحججها

(١) الزخرف / ٢٣.
(٢) الجمعة / ٥.

وأدلتها، فتصير مفاهيم عن الحياة، وهكذا بتجردهم عن مقتضى الإيمان صار علمهم مجرداً عن العمل لا محالة.

ولَمَّا لم يتقصد بنو إسرائيل الفهمَ في العلم على جهة الإيمان بحقائقه، حملوا التوراة كتصورات أو معلومات أوجدت لديهم أفكاراً متخيلة في أذهانهم لا بوصفها حقائق يؤمنون بها، فحملوها من غير عناية حفظ لها في بنية عقليتهم ونمط التفكير المنتج اللازم لهذا العلم، ولم يكن عندهم الاهتمام اللازم لمثل هذا العلم حين إنجاز الأعمال أو مواجهة ما عملوا به ولزم عليهم أداؤه بأمانة وصدق.

ولأجل ذلك وُصف حملُهم للتوراة بأنه ليس بالحمل المطلوب لأمانة العلم مما علموا فقال تعالى: ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾؛ وهكذا غالبُ السواد الأعظم من الناس يدور في مجريات العادات والتقاليد والموروثات الاجتماعية من غير إعمال فكر لفهم حقائقها فهماً يقتضي الإيمان بما يصح منها ويحتم العمل لا محالة.

بل هكذا كثير من أهل الاختصاص في العلوم الشرعية يحمل العلم من غير مقتضى الإيمان وحتمية العمل.

ولقد غفل هؤلاء عن حقيقة أن: ليس تحصيل العلم التصوري أو المعلوماتي عن الحياة والأشياء فهماً بالمعنى الأخلاقي الذي يؤثر في العمل ويجسده السلوك، وكذلك ليست رواية العلم فهماً له وفق هذا المراد، ولربما وُجد من المستشرقين مَن هو أعلم من بعض علماء الشرع بالشرع وحاله كحاله من جهة العلم العادي بالتصورات أي المعلومات المجردة عن

إرادة العمل، مع الفارق التديني بين الاثنين.

إنَّ الفهمَ في العلم المراد لبناء الشخصية أكثر من إدراك دلالة الألفاظ، أو حفظ المتون والشروح والفتاوى، أو حمل الإجازات من الشيوخ أو نيلها من الأكاديميات، فالفهم المراد في العلم، هو: إدراك مطابقة دلالات العلم على الواقع بوصفه حقائق تقتضي الإيمان وتحتم العمل وتستلزم المسؤولية، فلا نجاح من غير تضحيات.

دلَّ عليه أن الله تعالى بعد أن وصف المؤمنين بالعلم وهم يعملون به قال عنهم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] وبيَّن رسولُ الله ﷺ حقيقة الفهم في العلم على ما يجب من السماع والحفظ والبلاغ وتحمل المسؤولية، عن زيد بن ثابت قال:: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [نَضَّرَ اللهُ امْرأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ؛ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بفَقِيْهٍ][2].

الثَّالِثُ: الْفَهْمُ الْمَعْرِفِيُّ لِلْعِلْمِ:

المفاهيمُ هي نتاجُ التفكير في معاني الأفكار بما ينشئُ المعرفةَ ويؤسس لها في الأذهان، وتظهرُ به على شكل مفاهيم عن الأشياء والحياة ومقاييس للأعمال وقناعات خبراتية فضلاً عن القناعات الإيمانية لها.

ومن هنا يتأتى الفهمُ المعرفي للعلم بما يفيد العمل؛ إنشاء وتأسيساً بطريقة التلقي الفكري لا بطريقة التلقين المعلوماتي والوظيفي، ويكون

(١) الزمر / ٩.
(٢) أخرجه أبو داود في السنن: (٣٦٦٠). والترمذي في الجامع: (٢٦٥٦).

أعلى في معطياته ومخرجاته من الفهم اللغوي التصوري، وأرفع بمستواه من الفهم العلمي العادي لا محالة.

إن التفكير الذي ينتج المعرفة بوصفها مفاهيم عن الحياة والأشياء ويتعامل مع دلالة المعلومات المعيَّنة من الخطاب بحسب موضوعه، بما يؤدِّي إلى تكوينِ معنى له مناطهُ الواقعي في الذهن بحسب دلالته وهي تجول فيه مربوطةً مع الإحساسِ بالواقع؛ فينشأُ الفكر له بجولان عقلي يربط الإحساس بالواقع مع المعلومات السابقة المناسبة له بالضرورة.

ولذلك يُبنى هذا الفهمُ ويتكوَّن بحسب المعلوماتِ المتوفرة عن واقعه، وبتأثير القدرةِ الواعية للمُلْقِي على عقليَّة المتلَقِّي وهو يتعامل معه بالفكرة طلباً لحقيقتها، بعيداً عن التصور اللغوي المجرد عن الواقع، وأيضاً بما هو أكثر من التلقي المعلوماتي غير الجاد في العمل.

فمثلاً؛ قال أبو اليمان المصري[1]: سألتُ الشافعيَّ عن حديث النبي ﷺ: [يُرشُّ مِنْ بَوْلِ الغُلاَمِ وَيُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الجَارِيَةِ] والمَاءآن جَمِيعاً وَاحِدٌ ؟ قال: لأَنَّ بَوْلَ الغُلاَمِ مِن المَاءِ وَالطِّين، وَبَوْلُ الجَارِيَةِ مِنَ اللَّحْمِ وَالدَّمِ. ثُمَّ قَالَ لِي: فَهِمْتَ ؟ أَوْ قَالَ: لَقِنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ ؟

قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ خُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعِهِ القَصِيرِ. فَصَارَ بَوْلُ الغُلاَمِ مِنَ المَاءِ وَالطِّين، وَصَارَ بَوْلُ الجَارِيَةِ مِنَ اللَّحْمِ وَالدَّمِ. قَالَ لِي: فَهِمْتَ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ لِي: نَفَعَكَ اللهُ بِهِ[2].

(١) هو أبو لقمان، محمد بن عبد الله بن خالد الخراساني، سألَ الشافعيَ بمصر. تهذيب التهذيب: ج ٤ ص٦١٠، مؤسسة الرسالة.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند:(٢٧٣٧٠) بإسناد صحيح لغيره، والسؤال ≺≺

وفي جواب الإمام نظرٌ، وأوردناه هنا للمثال على الفهم المعـرفي للعلـم، وليس للتدليل على موضوعه في الخلق.

ولذلك لَمَّا لم تكفِ المعلوماتُ للمتلقِّي في الجواب الأولِ ليرتقِي بذهنـهِ إلى مُستوَى الفكرةِ فيفهمها، سألَ للإيضاح والتحقيـق، فلمـا أتَمَّهـا عليـه بتفسيرِ الأصل لَها ومرجعيَّتها من الأصلِ الفكـري للخطـاب أدركَ المـراد وسبَبه. فهذا النوعُ مـن التلقِّـي الفكـري للخطـاب يُكَـوِّنُ الفهـمَ المعـرفي العادي، ويوجِدُ القناعةَ بالفكرة ودلالتها على الواقع بالتسليم لا محالة.

وهذا النوعُ من الفهمِ المعرفي، يحتاج المـرءُ فيـه إلى معلومـات مناسـبة يتعلَّمُها فتوجه جولان الفكر وهو يسَلِّطُها على الواقعِ موضـوع الـتفكير، وبالضرورة الفكرية أن يتعاملَ مع هذه المعارف حتى تخرجَ من إطارِ ذهنـه وتصورات خواطره بوصفهِ الشخصيِّ إلى حيِّزِ الخطاب مع العقولِ والأفهام، فتتحوَّلَ إلى قناعةٍ.

وإذا حصلت القناعة بِها، هيمنَت على مناخِ ذهنه وعواملِ تفكيره. مما يجعلُ فَهْمَ المرء للفكرةِ يخرج إلى دائرة أوسع لتفسيرِ الأشياء بِهـا والحكـم عليها من خلالها.

وإذا حصلَ التفاتُ المرء إلى الفكرة والتلقي المعرفي لها، فإنـه سـيخرجُ عن العادةِ والمـألوف في الـتفكيرِ والعمـل إلى إطـار الإحسـان في تفكـيره وأحكامه؛ أي يخرجُ من إطار الفهمِ التصوري أو العلمي بالمألوف والعادة، إلى إطار الفهمِ الفكـري للخطـاب بحسـبِ مقتضـاهُ الـدلالِيِّ وضـروراته

أورده ابن ماجة في السنن: (٥٢٧).

الإيْمانيَّة. ويظهرُ ذلك جليّاً في مجالات العمـلِ وفي الأداء الـوظيفيِّ لـه، ويتميز بصفتهِ التي تكوَّن بها الفكر على شكل مفاهيم ومقاييس وقناعات هي الأخلاق حتماً.

وأعلى مرتبةٍ في هذا النَّـوعِ مـن الفهـمِ الفكـري هـو تحقيـقُ الإدراك السليم للفكرة والوعي التامِّ عليها في الواقع من مجريات الأمـور لمجـالات العمل في الأوساط الجماعية والمجتمعية.

وأيضاً يتأتَّى للمرءِ ذلك بإدراكِ الواقع بأفكار تعبِّرُ عنـه يتلقَّاهـا عـن طريقِ التعليم والدرس، وتنشأُ في ذهنهِ بالوعي على حقيقتهـا الموضـوعية كما هي في الواقع على ما يجب من دلالات المعلومات السابقة اللازمة في الفكر، ثم استبانته لقدرته على حفظها وأدائها بالضرورة في القول والعمل.

وتتأتَّى هذه القدرةُ الواعية من العناية بتحويلِ الأفكار حين تلقِّيها من مصادرِها إلى معانِي في الذهن تعبِّرُ عن واقع موجود، فينظرُ فيهـا بحسـب مناطِها ودلالات المعلومات عنها، حتى يَحْصلَ لَها في ذهنهِ تصـديقٌ عـن طريق البرهان العقليِّ أو الدليل الحسِّي. أو يحصل لَها قَبُولٌ من غـيرِ منازعـة لثبوتِ أصلها وأساسها المعتمدِ في التلقِّي لصدر المخبر حتماً.

وعن ذلك فإنه لا يكفي التلقي التلقيني الساذج للخبر، من غير تـدبُّر للمراد، فلذلك سأل أبو اليمان المصري عن وجه الفكرة، فبـيَّن الشـافعي وجهَ الفهم، وتحولَ التلقي إلى حالة فكرية نافعة حتماً.

ومع أنه يحصلُ هذا الضرب للفهم عند كلِّ إنسان على السجيَّة من غـير تكلُّف، وربَّما مَنَعَهُ الكسلُ أو الانصراف عن الفكرةِ حـين تلقِّيهـا إلى غيرِهـا

من الشُّبهات أو الشَّهوات، فإنَّ هذا الانصراف أو الكسل أو اليأس يذهبُ بالمناخ الإيْمانِيِّ للفكرة عن واقعِها المنصرف بموانع الفهم إلى النشاط وحيوية الفهم المؤمن حين التلقِّي في حلقات الدرس وحُجراتِ العلم المدرسي.

ومثالُ ذلك جميع الأفكارِ، اعتباراً من النصِّ الذي تقرأُ إلى أيِّ فكرة يتلقَّاها المرءُ، فإنه يجب إعمالُ الفكر في حقيقة الفكرة بما يتلمسه المتفكر منها في الواقع ليحدث في ذهنه القناعة بها ويكوِّن له بها مفهوماً يليق بالواجب المحتَّم للعمل بها.

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ولقد أدركَ الأولون أن التفكير الذي ينتج الفهم المعرفي للعلم إنما يكون من أجل العمل، ومقتضاه الإيمان، ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرَّون الفهم بإدراك سليم للعلم ووعي تامٍّ عليه في مجالات العمل؛ مثال ذلك: عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: [إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سُنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ] قِيْلَ: وَمَا الرُّوَيْبضَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: [السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ][2].

(١) النحل / ٧٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: (٧٩١٢ و٨٤٥٩)، حديث حسن. وابن ماجة في السنن: (٤٠٣٦). والحاكم في المستدرك: (٨٤٣٩) ج٤ ص٤٦٥، وقال: حديث ≺≺

سألَ الصحابة عن الرويبضة، لأنه في هذا السياق لأسباب الأمن وموانع الخوف ليس واضحاً دوره، وهويتكلم عن ظـاهرة مجتمعيـة للـرأي العـام وسياسة الجماعة، فأرادوا أن يفهموا عِلْمَ الرويبضة بمعرفة تؤدي إلى إنجاز عمل يتحتم حسب مقتضى ما يجب لأداء نظام الإسلام وأهليـة المسـلمين لصلاح دينهم به، فعُلم أن الرويبضة؛ وهي تصغير الرابضة، الإنسان العـاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، والتافه: الخسيس الحقير، فتكون له الصدارة والرئاسة في الجماعة وسياسة السلطان عند ظهور هذه العلل في الأمة لا محالة.

ومن ذلك، إدراك الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن التفكير المنتج الفهمَ اللازم للعمل هو الذي يجمعُ الخير في الدنيا للآخرة، عن حُميد بـن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب رسـول الله ﷺ قـال: قَـالَ رَجُـلٌ: يَـا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، قَالَ: [لاَ تَغْضَبْ] قَالَ: قَالَ الرَّجُـلُ: فَفَكَّـرْتُ حِـينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ[1].

وهكذا يتوجهُ التفكير المنتج للفهم المعرفي في العلم لما يجب في العمل ويراد منه، وهو يستحضر قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: (٢٠٢٨٦). والإمام أحمد في المسـند مـن طريقـه: (٢٣٩٧١). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (١٣٠١٦)؛ قال الهيثمي: رواه أحمـد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) القصص / ٧٧.

ويعلمُ النابهُ: أنه يحتاج من نفسه العزمَ على الطاعة لإنجاز الأعمال وتحقيق الأهداف وهو يمارس الصدق في ذلك، عن ربيعة قال: «فَقَالَ لِي- أيْ رَسُولُ اللهِ ﷺ- يَوْماً؛ لِمَا يَرَى مِنْ خِفَّتِي لَهُ وَخِدْمَتِي إِيَّاهُ: [سَلْنِي يَا رَبِيْعَةُ أُعْطِكَ؟] قَالَ؛ فَقُلْتُ: أَنْظُرُ فِي أَمْرِي يَا رَسُولَ اللهِ ! ثُمَّ أُعْلِمُكَ ذَلِكَ. قَالَ: فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي؛ فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ زَائِلَةٌ، وَأَنَّ لِي فِيْهَا رِزْقاً سَيَكْفِيْنِي وَيَأْتِيْنِي. قَالَ؛ فَقُلْتُ: أَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لآخِرَتِي؛ فَإِنَّهُ مِنَ اللهِ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُوَ بِهِ»[1].

الرَّابِعُ: الْفَهْمُ الْفِكْرِيُّ الْمُبْدِعُ:

يحصلُ الفهمُ المعرفيُّ للعلم بالمجاهدة على إدراك العلم والصبر على الطلب لمعانيه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2] ويكون عند تقصُّد الفطنِ النابهِ الفكرَ العميق المتطلع للعمل، فهو نمطُ التعلم العميق العميق الذي ينظرُ الواجبات والحقوق وما يترتب لهما من تحمُّل المسؤولية عليه، قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[3].

وأعلى أنواع الفهم المعرفي للعلم هو الذي ينتجُ عن التفكير المبدع، وهو؛ أي: الفهم الفكري المبدع، أعلى مرتبة من الفهم المعرفي للعلم، مع أنهما يشتركان بضرورة الإيمان للعلم واعتقاد الفهم اللازم منه في القول والعمل، إلا أنهما يتمايزان بقدرة المرء في الفهم العلمي على الممارسة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: (١٦٥٧٩)، حديث حسن.
(٢) العنكبوت / ٦٩.
(٣) المجادلة / ١١.

الأخلاقية الأكثر إتقاناً لمفاهيم المعرفة ومقاييسها وقناعاتها في العمل، وتحمل المسؤولية باستفراغ الوسع للاجتهاد في الجهد الفكري والعملي ابتغاء لمعالي الأمور وغاياتها في الرضوان والسعادة في الدارين في الدنيا والآخرة.

ولقد طلب الشارع الحكيم من الناس التفكير المنتج، ومنه التفكير المبدع، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، والفكر؛ هو: جولان العلم بالواقع بين الخلق في الذهن على طرائق ما يجب من دلائل العلم بالشرع بما هو أكثر من الفهم اللغوي التصوري أو المعلوماتي خارج مقتضى الإيمان وحتمية العمل، وإلى تقصد الفهم المعرفي للعلم في مجالات العمل وتنظيم مجريات الأمور للحوادث ووقائع الحياة، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[2].

ويجري هذا النوع من الفهم في تفكير العلماء العارفين والفقهاءِ الْمُجتهدين، ونِتَاجَاتُ تفكير الأذكياء المبدعين، لمسألةٍ أو لمسائل عديدة. وهو القدرةُ المدرِكَة في أذهانِهم، الواعيةُ للخطاب الفكريِّ، القادرة على تحقيقِ معانِي جديدةٍ من علم سابق؛ أي استنباطِ علم لَم يكن مَعْرُوفاً في تفسيرِ حادثة أو جوابِ مسألة أو معالجة مشكلة أو حلِّ عُقدة، وكذلك يظهر في سلوكهم في مجالات العمل ومجريات الحوادث بقصد الإنجاز في الأداء التام حتماً.

(١) النحل / ٤٤.
(٢) البقرة / ٢١٩-٢٢٠.

إنَّ هذا العلمُ يُؤتِيه مَن له حصيلةٌ معتبرة من المعرفةِ في الموضوع الذي ينظرُ فيه ويدرس معالِمه ويبحثُ معطياته، وهو في الشريعةِ علمُ الفقه بوصفه العلم بما يجب في العمل عند قيام الظنون، وهو فهمُ المجتهدين لما يجب من الشرع في الواقع بين الخلق، وهو في المعرفةِ عامَّة القدرةُ على الإبداع وما يظهرُ من فهم المبدِعين لاستعمال الأشياء في قضايا الحياة لا محالة.

ويحصلُ الاستنباط عند الْمُجتهدينَ مِن الذين لَهم أهليةٌ في النظر بعدَ تحصيلِهم للعلومِ الشرعية اللازمةِ، حين يتقصَّدون النظرَ في الخطابِ الشرعيِّ بعد دراسة المشكلةِ الحادثة ثم إنزالِ دلالة الخطابِ على الواقعِ ببذل أقصَى الجهدِ الفكريِّ، بل استفراغ الجهد في ذلك، قال تعالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[1] فعلمُ المستنبط هو التفسيرُ الفكري لظاهرةِ الواقعة أو هو الحلُّ للمشكلة الحادثة من زاوية الخطاب الشرعي.

ويلاحظُ على الفهم الاستنباطيِّ أنه ليس فهماً عادياً لإدراكِ دلالة الخطاب الشرعي أو الخطاب الفكريِّ أو الخطاب الفقهي، وإنَّما هو إدراكُ دلالة الخطاب على واقعٍ جديد يحتاجُ إلى تفسيرٍ لَم يكن سابقاً، فهو فهمٌ لمطلوب خبريٍّ يُدْرَكُ من دلالة النص على الواقع. وصورة ذلك ما يجري في أذهان الفُقهاء الْمُجتهدِين بالحكم على المسائلِ الْمُحدَثَةِ التي لَم يسبق لَها نظرُ فقيهٍ أو معرفة شرعية لَها. وطريقةُ الفهم الاستنباطي ليس التلقِّي الفكري للخطاب فحسب، بل هي استمدادُ معاني جديدة من الخطابِ

(١) النساء / ٨٣.

لإنتاج فكر أو بلورة مفهوم أو إنضاج خبرة لعمل حتماً.

وعن ذلك، فإنه ليس كلُّ مَن يحملُ العلمَ روايةً يكون فقيهاً، مع أنه عالِمٌ يحملُ فِقْهاً يَروِيَهُ للناسِ وربما عنده أهليةُ الفهم المعرفي للعلم، ولكنه لا درايةَ له به لأجلِ أنْ يحسنَ الرعايةَ به؛ فهو لم تحصُلْ لديه مَلَكَةُ إدراكِ المعنى على سبيلِ بيان دلالتها على الواقع لإنجازِ الأعمال، حسب مقتضى الإيْمانِ تصديقاً أو تَسْلِيماً وبأجواء إدراك الصِّلَة بالله عَزَّ وَجَلَّ، على ما ينبغي لِمثلِ هذا الذي يحملُ العلم مِمَّنْ يحملُ عِلْمَهُ وهو فقيهٌ؛ ولذلك قيل: رُبَّ حامل فقهٍ غير فقيه.

إِنَّ المرادَ بالفهم الفكري للعلم لينتج الإبداع هو: تحصيلُ العلمِ بالشيء بإدراكِ معانيه إدراكاً جازماً بقصدِ الرعاية لإنجاز الأعمال وفي أجواءِ منازل التقوى التي يهيمنُ عليها مناخ الإيْمانِ وإدراكُ الصِّلة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وليس أيُّ إدراك تصورياً أو تسليمياً من غير منازعة فكرية؛ أو تصديقياً من غير محاججة عقلية نتتهي فيهما المنازعةُ إلى صدق المخبر، وتنتهي المحاججة إلى الإحساس بالواقع.

وعن ذلك، فإنَّ الفقيهَ؛ الإنسانَ الفَاهِمَ لقصدِ مُرادِ الشارعِ في العُرْفِ الإسلاميِّ، هو الذي يخافُ اللهَ، عن عِمْرَانَ الْمِنْقَرِيِّ؛ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ – الْبَصْرِيِّ – يَوْماً فِي شَيْءٍ قَالَهُ: يَا أَبَا سَعِيْدٍ، لَيْسَ هَكَذَا يَقُولُ الْفَقِيْهُ ؟ فَقَالَ: «وَيْحَكَ، وَرَأَيْتَ أَنْتَ فَقِيْهاً قَطْ؟ إِنَّمَا الْفَقِيْهُ: الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الآخِرَةِ، الْبَصِيْرُ بِأَمْرِ دِيْنِهِ؛ الْمُدَاوِمُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ»[1]. وعن

(١) رواه الدارمي في السنن: المقدمات: (٢٩٤)؛ وإسناده صحيح، رجاله موثوقون. وحكاه الديلمي عن أنس بن مالك موقوفاً: في الفردوس بمأثور الخطاب: (١٣٧٠) ≺≺

مجاهدٍ قال: «إِنَّمَا الْفَقِيْهُ مَنْ يَخَافُ اللهَ»[1].

فتحصيل العلمِ (التصديق الجازم) بقصد العملِ به ورعاية الشُّؤونِ في مناخ الإِيْمانِ من الأدلة وأجواء إدراكِ الصِّلة باللهِ باستحضار أركان التقوة هو الفهمُ في الدِّين وهو الفقهُ المراد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

الخَامِسُ: الْفَهْمُ الْمُسْتَنِيرُ الْمُلْهَمُ:

الإِلْهَامُ: إلقاءُ الشيء في الـرَّوْع، فيقـعُ في القلـب معنـى مـا يجـب في العمل، أو يحصلُ منه علمٌ يدعو إلى العمل به من غـير سـابق استحضـار للاستدلال، وأصلهُ من الْـتَهَمَ الشـيءَ، وهـو: ابتلاعـهُ، والْـتَهَمَ الفصـيلُ الضَّرعَ، وفرَسٌ لَهِمٌ: كأنَّهُ يلتهمُ الأرضَ لشدَّةِ عَدْوِهِ.

والمراد؛ هو: الأمرُ من الله تعالى في الشيء أن يكون على هيئـة معينـة أو حال فيكون، أو يحصل فيه أمرٌ آخر يظهرُ أثرهُ في حيِّز الوجود بـالفطرة والتسخير من غير فكرةٍ حتماً.

ويختصُّ الإلهامُ بما كان من جهة الله تعالى في إلقاءِ أمـرهِ في الخلـق، أو من جهة الملأ الأعلى بإذن الله تعالى. والأول كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[3]، فإلهامها هنا، بمعنى: أمرَ اللهُ في النفس القـدرةَ

وسكت عنه المحقق سعيد بسيوني .

(١) رواه الدارمي في السنن: المقدمة: (٢٩٦) وربما إسناده فيه نظر .

(٢) فاطر/ ٢٨.

(٣) الشمس / ٧-٨.

المختصة لأمرٍ ما؛ وفيها القابلية على فعل الفجور أو فعل التقوى بالفطرة والخلق؛ لا محالة.

واختصاص النفس بهذا الإلهام بالفطرة، أمرٌ في الخلق أن يكون على هذا النمط من الاختصاص فيكون، وجعل معالجته في الحيوان بالتسخير، وجعل معالجته للإنسان بالتفكير والاختيار بالفكرة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(١) فاختص الإنسان بالتكليف، واختياره يقوده إلى التزكية، أو إلى التلوث بالآثام والمعاصي.

واللهُ تعالى هو الذي يزكي الأنفس عنده فيختار أولياءه وأصفياءه، والمكلف يتطلَّع إلى هذه التزكية بالتقوى، فلا يتسنى للمرء تزكية نفسه مهما أوتي من ظواهر التقوى ومظاهرها، فالله أعلمُ بمن اتقى، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾(٢) ولكن طريق التزكية معروفٌ، ويحصل بانضباط الفطرة بالفكرة، وتقييدها بأحكام ما يجب من الشرع في الواقع بين الخلق حتماً.

أما الإلهام من جهة الملأ الأعلى فيحصل بلَمَّة الْمَلَكِ، وبالنَّفث في الرُّوع، فيكون الإلهام ضربٌ من اللَّمَّة التي تحدث في النفس من الملائكة الكرام، أو من الشياطين اللئام، شياطين الإنس والجن، واللَّمة ما يقع في القلب من ذلك، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ؛ فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيْعَادٌ

(١) الشمس / ٩-١٠.

(٢) النجم / ٣٢.

بالشَّرِّ؛ وَتَكْذِيْبٌ بالْحَقِّ. وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيْعَادٌ بالْخَيْرِ وَتَصْدِيْقٌ بالْحَقِّ. فَمَنْ وَجَدَ ذلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ. وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ؛ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ ﴾][1].

ويحدثُ الإلهام عند المؤمنين من أثر التقوى بالفكرة التي جاء بها الإسلام، وتظهر عند الذين يتبعون ولا يبتدعون، بأن تحدُث عندهم المفاهيم بنور يقذفه اللهُ في عقولهم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: عن النبيِّ ﷺ: [أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ][2]. وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَقَدْ كَانَ فِيْمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ؛ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ][3].

قال ابن حجر العسقلاني: «قالَ ابن السمعاني: وإنكار الإلهام مردودٌ؛ ويجوز أن يَفْعَلَ اللهُ بِعَبْدِهِ مَا يَكْرَهُهُ بِهِ، ولكن التمييز بين الحقِّ والباطل في ذلك: أَنَّ كُلَّ مَا اسْتَقَامَ على الشَّريعةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، ولم يكن في الكتاب والسُّنَّةِ مَا يَرُدُّهُ فَهُوَ مَقْبُولٌ. وإلاَّ فمردودٌ يقعُ في حديثِ النَّفْسِ وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ.

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: (٢٩٨٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب وهو حديث أبي الأحوص لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث ابن الأحوص. والنسائي في السنن الكبرى: (١١٠٥١/ ١). وابن جرير الطبري في جامع البيان: (٤٨٢٣) و(٤٨٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: (٢٣/ ٢٣٩٨). والترمذي في الجامع: (٣٦٩٣). والنسائي في السنن الكبرى: (١٨١٩/ ٩ و١٨٢٠/ ١٠).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: (٣٦٨٩).

ثُمَّ قال: ونحنُ لا نُنكر أنَّ الله يُكْرِمُ عبدهُ بزيادة نُوْرٍ منهُ يزداد به نَظَرُهُ ويقوى به رَأْيُهُ، وإنما ننكر أن يُرْجِعَ ذلك إلى قَلْبِهِ بقولٍ لا يُعـرف أصْـلُهُ؛ ولا نزعمُ أنه حُجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، وإنَّما هُوَ نُورٌ يختصُّ اللهُ بهِ مَن يشاءُ من عِبَادِهِ، فإن وَافَقَ الشَّرعَ كانَ الشَّرعُ هو الْحُجَّةُ»[1].

ومعنى مُحَدَّثُونَ قال الترمذيُّ بسنده عن سفيان بن عيينـة: «محـدَّثُونَ يعني مُفَهَّمُونَ». وقال مسلمُ في صحيحه: «قال ابنُ وهب: تفسير مُحَدَّثُونَ مُلهَمُونَ».

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله محدَّثون بفـتح الـدال جمـع مُحَـدَّثٍ، اختُلِفَ في تأويله فقيل: مُلْهَمٌ؛ قاله الأكثـر. قـالوا الْمُحَـدَّثُ بـالفتح هـو الرجلُ الصادق الظنِّ، وهو مَنْ أُلقي في رُوْعِهِ شيء مِنْ قِبَلِ الملإ الأعلى، فيكون كالذي حَدَّثَهُ غيرهُ به.

وَقِيْلَ: من يجري الصَّوابُ على لسانهِ من غير قصدٍ، وَقِيْلَ: مُكَلَّمٌ أي تُكلِّمهُ الملائكة بغيرِ نبوَّة، وهذا وردَ في حديث أبِي سعيدٍ الخدري مرفوعـاً ولفظه: قِيْلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يُحَدَّثُ؟ قَـالَ:[تَـتَكَلَّمُ الْمَلاَئِكَـةُ عَلَـى لِسَانِهِ] ويحتملُ ردُّه إلى المعنى الأول؛ أَيْ تُكَلِّمه في نفسه وإن لَمْ يَرَ مُكَلِّماً في الحقيقة فيرجعُ إلى الإلهام، وفسَّرَهُ ابن التين بالْتَفَرُّسِ.

ووقع في مسندِ الحميـدي عقـبَ حـديثِ عائشـة: اَلْمُحَـدَّثُ الْمُلْهَـمُ بالصَّوَابِ الذي يُلْقَى على فيهِ. وعند مسلم من رواية ابن وهب– مُلْهَمُونَ: وهي الإصابةُ بغير نبوَّة– وفي رواية الترمذي عن بعض أصحاب ابن عيينة

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: (٦٩٩٧): ج١٢ ص٤٨٠.

– مُحَدَّثُونَ يعني مُفَهَّمُونَ – وفي رواية الاسماعيليِّ قال إبراهيم – يعني ابن سعد –: قولهُ مُحَدَّثٌ أي يُلقَى في رَوْعِهِ. انتهى. ويؤيِّدهُ حديث [إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ]»(١).

أَمَّا حديثُ أبي سعيدٍ الخدريّ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ حَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَإِنَّ اللهَ بَاهَى بِالنَّاسِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ عَامَّةً؛ وَبَاهَى بِعُمَرَ خَاصَّةً؛ وَإِنَّهُ لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيّاً إِلاَّ كَانَ فِي أُمَّتِهِ مُحَدَّثٌ، وَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَهُوَ عُمَرُ] قَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ مُحَدَّثٌ؟ قَالَ: [تَتَكَلَّمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى لِسَانِهِ](٢).

قال النووي: «واختلفَ تفسيرُ العلماء للمراد بمحدَّثون؛ فقال ابنُ وهب: مُلْهَمُونَ، وقيل: مُصِيْبُونَ وإذا ظنوا فكأنَّهم حُدِّثوا بشيءٍ فظنُّوا. وقيل: تُكَلِّمُهُمُ الْمَلاَئِكَةُ. وجاء في رواية مُتَكَلَّمُونَ، وقال البخاري: يجري الصوابُ على ألسِنَتِهم وفيه إثباتُ كراماتِ الأولياء»(٣).

قُلْتُ: والإلهامُ في أمر المسلمِ من الدِّين مرتبةٌ تَحْدُثُ للمتَّقين في أحوالهم فتلمَحُ البصائرُ لامعةً بالفكرة في أذهانِهم تذكِّرُهم بالمراد وِفْقَ أحكام الشريعةِ الغرَّاء والتقيد بأوامرِ الله ونواهيه كما جاءت في الكتابِ العزيز وهَدْيِ الرسول سيدنا مُحَمَّد ﷺ، ولا متَّسع لِمُدَّعي يزعمُ. وإنَّما

(١) في الفتح: ج ١٢ ص٦٢: شرح حديث أبي هريرة.
(٢) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٩ ص٦٩ (١٤٤٤٦)؛ قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط (٦٧٢٢) وفيه أبو سعد خادم الحسن البصري ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.
(٣) المنهاج شرح مسلم بن الحجاج: ج١٥ ص١٧٥.

هي أحوالُ المتقين حين إنجازِ الأعمال ببصائر التقوى واتباع الهدى النبويِّ، وطريقتُها الذكرى كما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى.

ويتنوَّعُ الإلهامُ إلى ثلاثة أنواعٍ:

الأوَّلُ: الإلهام بالفطرةِ.

الثانِي: الإلهام بالوحي.

الثالثُ: الإلهام بالفكرةِ.

وَأَمَّا إِلْهَامُ الْفِطْرَةِ: فهو من أمورِ الوجدان ومشاعر الإنسان تجاهَ الأشياء، فتظهر فيها توجُّهات إلى ما يلائمُها فيوافقها فتأمن به أو يختلفُ معها فلا تطمئنُّ له.

وهذا النوع من الألهام بالفطرة والتسخير يجبُ أن يَنْتَبِهَ إِلَيْهِ الْعُقَلاَءُ، وهو لَمَّةٌ قبالةَ الشيء إلى الفجُور أو إلى التقوى بالفطرة أو الشعور الغريزي الوجداني فيهما. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

قال الحسن البصري في الآية: «قد أفلحَ من زكَّى نفسه وأصلحَها، وخابَ من أهلكها وأضلَّها». وعن الربيع يقول: «أفلحَ من زكَّى نفسه بالعمل الصالح، وخاب من دسَّ نفسه بالعمل السيء»[2].

أَمَّا الإِلْهَامُ بِالْوَحْيِ: فهو فَهْمٌ يؤتيه اللهُ النَّبِيَّ لحلِّ مشكلةٍ أو فكِّ مُعضلةٍ أو جواب على سؤال؛ فهو فَهْمٌ وليس رسالةً أو تكليفاً وهو كما حصل

(١) الشمس/ ٧-١٠.

(٢) أوردهما السيوطي في الدر المنثور: ج ١٥ ص٤٦١.

مع سيِّدنا سُليمَانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾[1] فالحكم والعلمُ نبوةٌ ورسالةٌ.

وأما الفهمُ بأن بيَّنَ اللهُ له اللازمَ الحكمي في المسألةِ في قلب سليمان عليه السلام من غير استنباطٍ، فألقى في روعه ما كان من حلٍّ للمسألة فكَّ لُغزها وألانَ معضلتها، ولأن النبيَّ لا يصحُّ في حقِّه الاستنباطُ لمعرفة الأمورِ الشرعيَّة فهو مُشَرِّعٌ وليس فقيهاً متشرعاً، وهو نبيٌّ يوحَى إليه من ربِّهِ بالرسالةِ والحكم والنبوَّة.

ولهذا كان الفهمُ هنا لسليمان عليه السلام ليس من الحكم والنبوة في أمرِ الخصمَين وإنما هو من الإلهام فطنة وذكاءً، وهما يقعان في دائرة القضاء للفصل بين المتخاصمين. فضلاً عن أنه لا يصحُّ في حقِّه عقيدياً إطلاقُ لفظ فقيهٍ أو مُستنبطٍ، وهكذا جعلَ الشارعُ إلهامَ النبي بالفهم غير حاله في التشريع، فهو مَن يُرَدُّ إليه الأمرُ في التشريع للاستنباط منه لعلم الفقهاء، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[2] وهم أُولوا الأمرِ من العلماء المستنبطين في حال غيابِ الرسول.

وهذا الضربُ من الفهم بالإلهامِ لا يحصلُ إلا لنبيٍّ بوحي الله له به، وهذا أيضاً ليس مراداً في بحث: الأثر البنيوي في المفهومِ وتكوينه عند الناسِ، لأنه خاصٌّ بالأنبياء. والمراد هو بحث المُحَدَّثُونَ والمُلْهَمُونَ من الناسِ ممن هم ليسُوا بأنبياء؟

---

(١) الأنبياء / ٧٩.

(٢) النساء / ٨٣.

وهذا هو **الضربُ الثالث** من الفهمِ المستنير بالإلهام؛ أي الإلهامُ بالفكرة من التفكير المستنير، وهو الفهم الذي يُلقى في الذهنِ فيُحْدِثُ البصيرةَ بدافع التقوى وبطريقة التذكرة حين التقيد بالأحكام الشرعية؛ فالأساسُ فيه الإيْمانُ الذي هيمنَ على الفكر والذهن، والأصل فيه الفكرةُ الشرعية، والكيفية فيه إعمال الذهن بقصد القربةِ والاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ طاعةً لأمره سبحانه وتعالى واستجابةً.

ويحصل لأهلِ القُربةِ من العارفين الأتقياء والأصفياء الأنقياءِ، وهو فَهْمٌ يقذفهُ الله في أذهانِهم ويلقيه في رُوْعِهم حين يَمسُّهم أمرُ المشكلة وواقع المصاب فيُبَصِّرُهم الله بالحلِّ بطريقة التذكرة لا بالوحي، ولا مِن غير علمٍ، وإنَّما يلقي اللهُ الفَهْمَ في أذهانِهم بالتذكرة لما يجب، ويُفطِّنهم له.

والتذكرةُ من الله تعالى للإنسان بالفطنة والذكاء هي عمليَّة عقليةٌ، بأن يحضرَ المفهومُ في أذهانِهم من علمِ الرسول وفقَ ما جاء في دلالةِ الخطاب الشرعيِّ من الكتابِ والسُنَّة. فتظهرُ هذه الدلائل على الواقع في أذهانِهم، فينكشفُ لَهم أمره وبيانُ لهم فيه حُكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[2].

ولقد عَرَفَ سلفُ هذه الأمة أن البصائرَ لا تأتِي من الفهم اللغوي باجترارِ المعانِي وترديدها من غيرِ وَعْيٍ إيْمَانِيٍّ أو رعايةٍ وعمل؛ جاء في الأثرِ عن سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «اَعْقِلُواْ الْخَبَرَ عَنَّا عَقْلَ

(١) الأعراف/ ٢٠١.
(٢) البقرة / ٢٨٢.

رِعَايَةٍ لاَ عَقْلَ رِوَايَةٍ»[1]، «كُونُواْ لِقَبُول الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِمَاماً بِالْعَمَلِ» وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال «كُونُواْ لِلْعِلْمِ وُعَاةً وَلاَ تَكُوْنُواْ لَـهُ رُوَاةً، فَقَـدْ يَرْعَـوِي مَنْ لاَ يَرْوِي، وَقَدْ يَرْوِي مَنْ لاَ يَرْعَوِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَكُوْنُـواْ عَـالَمِيْنَ حَتَّـى تَكُوْنُواْ بِمَا عَلِمْتُمْ عَامِلِيْنَ»[2].

وهكذا عَلِمَ سلفُ الأمة وعَمِلُوا، عن أبي بكر بن أبي سعدان قـال: «مَنْ عَمِلَ بعِلْمِ الرِّوَايَةِ – السَّمَاعِ – وَرِثَ عِلْمَ الدِّرَايَـةِ – الْفِقْـهَ – وَمَـنْ عَمِلَ بعِلْمِ الدِّرَايَةِ وَرِثَ عِلْمَ الرِّعَايَةِ – حُسْنُ التَّدْبِيْرِ وَالنَّظَـرِ وَالاِهْتِمَـامِ وَالْحِفْظِ – وَمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِ الرِّعَايَةِ هُدِيَ إِلَى سَبِيْلِ الْحَقِّ»[3].

ولقد أثِرَ عن أحمد بن حنبل عن التابعين قولُهم: «مَنْ عَمِلَ بِمَـا يَعْلَـمُ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[4]، وهو الإلهامُ المعتبر بالشرع، قال الله تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[5].

قـال تعـالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[6].

أما الطريقةُ التربوية للوصولِ إلى الإلهام بالبصيرة؛ أي بالفكرة، فهـي

(١) نهج البلاغة: ص١٨٥. وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٣٨٨.
(٢) الفردوس بمأثور الخطاب: (٤٧٠٧). وأدب الدين والدنيا للماوردي: ص٦٥.
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم: ج ١٠ ص٣٧٧، ومن حكمهِ قال: الصابر علـى رجائـه لا ينقطع من فضله، ومَن سمع بإذنه حكى، ومن سمع بقلبه وعظ، ومن عمل بمـا علم هدى واهتدى.
(٤) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١٠ ص١٤-١٥.
(٥) محمد / ١٧.
(٦) النساء / ٦٦-٦٨.

كما جاء عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بهَا. وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بي لأُعِيْذَنَّهُ. وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ][(١)].
وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[(٢)].

تَكْوِينُ الْمَفَاهِيمِ

تنشأُ المفاهيمُ بحركة الفكر في الذهن لوجود معلومات عن الأشياء، أو لوجود الأفكار؛ فالمفاهيم هي معاني المعلومات بوصفها ألفاظاً يُراد منها إفهامُ السامع، أو معاني الأفكار بوصفها معارف يراد منها إفهام السامع لإتقان المطالب وحفظ المقاصد بإيقانٍ يفيدُ العملَ، كقول الملَك لسيدنا محمد ﷺ: [إقْرَأْ]، وليس عنده ما يقرأ، فيقول له مجيباً:[مَا عِنْدِي مَا أَقْرَأُ]، أي: لا من علم سابق يراد، ولا من فكر يعرف، حتى أعطاهُ علمَ ما يقرأ، وفيه من دلالات الفكر لما يجب أن يتقنَ فهمَهُ بإيقان النبوَّة الرسالة.

والفهمُ؛ هو: تصوُّر الشيء المطلوب من حركة الواقع المحسوس في الذهن، أو تصور دلالة لفظ المقابل على ما يراد في مطلوبه، إذا كان للمرء مستوى من العلم أو الفكر يليق بالمطلوب؛ لا محالة.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: الحديث (٦٥٠٢).
(٢) الأنفال / ٢٩.

ولقد تصورَ ابن آدم المطلوب وفَهِمَ القصدَ من بحث الغراب في الأرض ليريَهُ كيف يواري جثة أخيهِ، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[1].

وهنا أدرك ابن آدم المطلوب من فعل الغراب وفَهِمَ المطلوب من فعله لعلمه هو ما يلزمُ تجاه جثة أخيه، فتكوَّنت عنده صورة ذهنية تقرأ حركة الواقع وإنْ لم توضع إزاءها ألفاظٌ من قبل.

وكذلك يكوِّن الفهمُ صورةً ذهنية بوضع الألفاظ إزاءها، سواء كان لها واقع محسوس تدرك حقيقته الحواس، أو لم يكن لها واقع ملموس إلا في ذهن القائل ومخيلته فلا تدرك حقيقته بلفظه، وقد تدرك مقاصده في الإحساس والشعور دون الفكر والمعرفة. فالشاعر حين يقول:

عُفُّو تَعُفُّ نِسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ ... وَتَجَنَّبُواْ مَا لاَ يَلِيقُ بِمُسْلِمِ
إنَّ الزِّنَا دَيْنٌ فَإنْ أقْرَضْتَهُ ... كَانَ الْوَفَاءُ مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ
يَا هَاتِكاً حُرَمَ الرِّجَالِ وَقَاطِعاً ... سُبُلَ الْمُرُوءَةِ عِشْتَ غَيْرَ مُكَرَّمِ
لَوْ كُنْتَ حُرّاً مِنْ سُلاَلَةِ مَاجِدٍ ... مَا كُنْتَ هَتَّاكاً لِحُرْمَةِ مُسْلِمِ
مَنْ يَزْنِ يُزْنَ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ ... إنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيباً فَافْهَمِ

فهذا المعنى موجودٌ في الواقع ومدركٌ حسّاً، وإن كان إدراكه يحتاج إلى عمق تفكير واستنارةِ رؤية، فتحصل الصورة الذهنية للفكرة من إفهام الشاعر للمتلقي بوضع الألفاظ إزاءها بما له واقع محسوس تدرك حقيقته

(١) المائدة / ٣١.

بالحواس بإتقان المطلوب الفكري من المعرفة ويتميز له بالإيقان والإيمان لا محالة.

وليس كقول الشاعر بكر بن النطاح وهو يمدح أبا دَلف العجلي:

قَالُواْ أيَنْظُمُ فَارسَيْن بطَعْنَةٍ يَوْمَ النِّزَالِ وَلاَ يَرَاهُ كَلِيلاً

لاَ تَعْجَبُواْ فَلَوْ أن طُولَ قَنَاتِهِ مِيلٌ إذَنْ نَظَمَ الفَوَارسَ مِيلاً

فهذا المعنى غير موجود مطلقاً، فلم يَنْظُم الممدوح فارسين بطعنة، ولا سألَ أحدٌ هذا السؤال، ولا يمكن أن يَنْظُم الفوارس ميلاً، فهذه المعاني للجُمل تُشرح وتُفسر ألفاظها، ولا تنشئ فكراً لتتكوَّن به مفاهيم.

وأما معنى الفكر فهو أكثر من وجود الفكرة في الذهن، وإنما المراد كيفية التعامل مع الفكرة لمعرفة واقعها ما هو، لأن الفكر ما جالَ في الذهن من العلم وله واقع، فيترتب الإحساس بالواقع مع المعلومات فينشأ حكمهُ بإثبات أو نفي، وإدراك هذا الحكم على الواقع، هو معنى الفكر، فيتكوَّن به المفهوم لا محالة.

وينشأُ المفهوم إذا كان لهذا المعنى من الفكرة واقعٌ يقع عليه الحسُّ أو يتصوره الذهن كشيء متعين لديه مميز عنده ويصدقه، كان هذا المعنى مفهوماً آنذاك عند مَن أحسَّهُ وتصوره وآمن به. ولا يكون مفهوماً عند من لا يحسِّهُ ولا يتصوره على حقيقته من الفكرة، وإنْ حدث وتصور معنى من الجملة الحاملة للفكرة وهو يسمع لمفرداتها أو يقرؤها، لأن هذا التصور هو من الفهم اللغوي التصوري دون مستوى الفهم الفكري للعلم حتماً.

والذي لا يفرِّقُ بين المفهومين يقع في تلبيس المدارك على نفسه ويستغرق وقته في غير المفيد، وينشغِلُ بدلَ أنْ يشتغِلَ، «ومن ذلك أنَّ قوماً استغرقوا في سماع الحديث والرحلة فيه، وجمع الطرق الكثيرة، وطلب الأسانيد العالية، والمتون الغريبة» ومن هؤلاء في زماننا، إذاوقعت له حادثةٌ في صلاتهِ لافتقر إلى من يُفْهِمُهُ المراد، قال ابن الجوزي:

«فإنْ أفلحَ أحدُهم ونظرَ في حديثهِ، فربَّما عمِلَ بحديث منسوخ، وربما فَهِمَ من الحديث ما يفهمه العامي الجاهل وعملَ بذلك؛ وليس بالمراد من الحديث، كما روينا أن بعض المحدِّثين روى عن رسول الله ﷺ: [أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَسْقِيَ الرَّجُلُ مَاءَهُ زَرْعَ أَخِيهِ] فقال جماعةٌ ممن حضَرَ: قد كنا إذا فضل عنا ماءٌ في بساتيننا سرحناهُ إلى جيراننا، ونحن نستغفرُ اللهَ. فما فهِمَ القارئ ولا السامعُ ولا شعروا أن المرادَ وطءُ الحبالى من السبايا»[1].

ومن هنا كان من المحتَّم لإنشاء المفاهيم على الشخص أن يتلقى ما يسمعُ أو يقرأ تلقياً فكريّاً، فيفهم معاني ما يتلقى كما تدلُّ عليه من حيث هي، لا كما يريدُها قائلها أو يريدها هو أن تكون حسب ما يرغب؛ مثال ذلك:

قال الخطابي: «وكان بعضُ مشايخنا يروي الحديث:[أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْحَلَقِ قَبْلَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ] بإسكان اللام، قال: وأخبرني أنه بقي أربعين سنة لا يحلِقُ رأسَهُ قبل الصلاة، قال: فقلت له: إنما هو الحَلَقُ جمعُ حِلْقَةٍ، وإنما كره الاجتماعَ قبل الصلاة للعلم والمذاكرة، وأمرَ أن يشتغل بالصلاة

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: تلبيس إبليس: ص١٥٥-١٥٦، والحديث أخرجه أبو داود في السنن: (٢١٥٨-٢١٥٩) بإسناد حسن.

وينصت للخطبة، فقال: قد فرَّجْتَ عني، وكان من الصالحين»[1].

وعلى الشخص أن يشْغُلَ عقلَهُ في تكوين المفهوم من معنى الفكرة، لا أن يشتغل بغيره؛ تتداخل مع معناه علمُ هذا الغير أو تفارق، وأن يهتمَّ بموضوع الفكرة من غير الاشتغال بغيره حتماً، وليس من الفقه والفهم الانشغالُ عن ذلك.

ويستوي في تكوين المفهوم على هذه الطريقة من التلقي الفكري العالِمُ والعاميُّ والمثقف النابهُ والإنسان العادي، وإلا كان التفكيرُ لا تدبيرَ للمفكر فيه موضوعاً وهدفاً، مثال ذلك: «قال أبو بكر الأبهري الفقيه: كنتُ عند يحيى بن محمد بن صاعد، فجاءتهُ امرأة، فقالت: أيها الشيخ!! ما تقولُ في بئر سقطت فيها دجاجةٌ، فماتت، فهل الماء طاهرٌ أم نجس؟ فقال يحيى: ويحكِ كيف سقطت الدجاجة في البئر؟! قالت: لم تكن البئرُ مغطاةً!! قال: ألا غطيتِها حتى لا يقع فيها شيء!! قال الأبهري: فقلت: يا هذه، إن كان الماءُ قُلَّتين ولم يتغير فهو طاهرٌ؛ ولم يكن عند يحيى ما يجيبُ المرأةَ»[2].

وكان ابنُ صاعد ذا محل من العلم، وله تصانيف في السنن وترتيب على الأحكام، ولكنه مع هذا لم يحسن الجواب، لأنه انشغل بغير موضوع الاستفهام عن الفهم للمراد، قال ابن الجوزي: «وقد كان ابنُ صاعد كبير القدر بين المحدثين، ولكنه لَمَّا قلَّت مخالطتهُ للفقهاء، كان لا يفهم جواب الفتوى»[3].

(١) تلبيس إبليس: ص١٥٦، والحديث أخرجه أبو داود: (١٠٧٩) بإسناد حسن.
(٢) تاريخ بغداد للإمام أبي بكر أحمد بن علي الخطيب: ج ٤ ص٢٦٣ (٧٥٣٧).
(٣) تلبيس ابليس: ص١٥٦، وذكر القصة بسنده إلى الخطيب.

ولأجل هذا؛ فإنَّ مطلب الفهم أكثر من العلم، وينشأ بالاشتغال بمعنى فكرتهِ ودلالتها للإقناع والعمل حتماً، فيتحتَّمُ أن يتلقى الشخصُ العلمَ تلقياً فكرياً، وأن يفهمَ معاني الجمل العلمية والنص المسموع أو المقروء كما تدلُّ عليه ألفاظه كما هي لا كما يريدها لافظُها أو يريدها هو أن تكون.

وأيضاً: أن يدرك الشخصُ واقع هذه المعاني في ذهنه إدراكاً يشخِّصُ له هذا الواقع، حتى تصبحَ هذه المعاني مفاهيم تكشف المراد في الإتقان المعرفي لها بما يكوِّن الإيقان، فلا يتأتى بنيةُ المفاهيم ولا تتكوَّن إلا بعد العلم في الشيء وما ينبغي أن يكون له أو عليه حكماً، ثم اعتقادهُ بيقين، لينتج عنه الاستقامة في القول والعمل لا محالة.

وبالضرورة: إنَّ المفاهيمَ هي المعاني المدرك لها واقع في الذهن سواءٌ أكان واقعاً محسوساً في الخارج كمعرفة سائر الأشياء والألوان، أم كان واقعاً مسَلَّماً به أنه موجود في الخارج تسليماً مبنياً على واقع محسوس كمعرفة الأشياء بأثرها الدال على وجودها.

وما عدا هذا من معاني الألفاظ والجمل لا يسمى مفهوماً، وإنما هو مجرد معلومات.

أما كَيْفِيَّةُ حُصُولِ الْمَفْهُوم فِي الذِّهْنِ: فذلك يرجعُ إلى طريقةِ التلقِّي للخطابِ، من جهة إدراك معانِي ألفاظهِ على الواقعِ فحسبَ، أو مِن جهةِ إدراك معانِي ألفاظه ودلالاتِها على الواقعِ إثباتاً أو نَفْياً، تصديقاً أو تَسْلِيماً.

والضربُ الأول من طريقةِ التلقِّي: هو التلقِّي اللغويِّ للخطـابِ مـن غير تحويلِ دلالتهِ إلى قناعات إيْمانيَّة فيكون الفهمُ اللغوي التصوري، وهو لا يستطيع نقلَ الفكرةِ من حيِّـزِ الـذهنِ إلى حركـة القلـبِ والوجـدان أو الشعور والعاطفة؛ وهذا الضربُ من التفكيرِ لا يرتقِـي بـتفكيرِ الشـخص بحيث يجعلُ له شخصيةً مميَّزةً فهـو فَهْـمٌ علمـيٌّ محـضٌ دون المفـاهيم عـن الحياة، بل مجرد معلومات تسمى مفاهيم تجوُّزاً، وليس حقيقة.

أما الضربُ الثانِي: فهـو التلقِّـي الفكـري للخطـابِ، بحيـث يتعامـلُ الشخص مع الخطابِ بإنزال العلم في فكرهِ على الواقعِ بقصدِ الإثبات أو النَّفيِ أوَّلاً، فتتأتَّى لديه القدرةُ الواعيـة علـى تحويـلِ أفكـارِ الخطـاب إلى إيْمانٍ بها ونفي ضدِّها أو تَمييزٍ لنوعِها، وهذا التحويلُ للمعلومات وهـي تجول في ذهنه بما يناسبها من الواقع المحسوس هو تشـخيصٌ للفكـرةِ علـى قصدِ القناعة بها.

إنَّ هذا التشخيص للفكرة بالضرورة من حتميـة العقـلِ ينقـلُ دلالـةَ الخطاب إلى القدرةِ علـى تفسـيرِ الأشـياء في عقليَّتـه، وجعلَـهُ – أي هـذا التفسيرَ – مِقيَاساً للأعمال. فتقليبُ دلالةِ الخطاب علـى الواقـعِ، والنظـرُ فيها والتأمُّل بِمضامِينها، يجعلُها تتركَّز في الذِّهنِ دافعـةً غيرَهـا في مجـالاتِ تفسير الأشياءِ والتعامل معها.

ولذلك نجدُ فرقاً بين مَنْ يدرُس الفقهَ الإسـلاميَّ بوصـفهِ معلومـات لطيفة تُمكِّنهُ من نيلِ شهادة علميَّة أو أكادِيْميَّة، أو كما يفعلُ المستشرقونَ، وبين مَن يدرُس الفقهَ الإسلاميَّ بوصفه أحكاماً شرعيَّة من ربِّ العـالَمين يتعبَّدُ بها اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ويتقربُ بها إليه.

أَمَّا كَيْفِيَّةُ حُصُولِ التَّلَقِّي الْفِكْرِيِّ لِلْخِطَابِ، فتأتِي طريقتهُ عندما يتأهَّلُ الشخص بمستوَى من المعلوماتِ عن الأشياء، ولغةِ الخطاب وأساليبهِ، فتمَكِّنهُ هذه الأهليةُ من التعاملِ مع دلالات الخطاب الفكريَّة، وتعطي الذهنَ القدرةَ الإدراكية على تَمَثُّلِ واقعِ الفكرة والاتساع بدلالاتِها؛ وأيضاً: يُمكِّنهُ هذا المستوى في التناسقِ الفكري مع نُظْمِ الخطابِ حكمياً على الأشياءِ؛ فَيُكَوِّنُ تَفْسِيراً معيَّناً للأشياء من جهةِ الخطاب المعيَّن في ذهنهِ.

وعند ذاك، تنتقلُ عقليةَ المرء نقلةً نوعيَّةً في التعاملِ مع الواقع أشياءً وأحداثاً، فيجعلُ المرءَ يتعاملُ مع كل شيءٍ تعامُلاً فكريّاً يقتضيه إيْمَانُهُ بفكرِ الخطاب الذي تعلمه ودلالته على الواقعِ، على مستوَى الإحساسِ والشعور والفكرِ، فتَتكوَّنُ عقليَّتهُ تكوِيناً معيَّناً حسب نَمَطِيَّةِ التلقِّي الفكري وقدراته الواعيةِ فيه.

بناءً على هذا التلقِّي الفكري للخطاب، يتأثرُ مستوَى الفهمِ لعقليَّة المتلقِّي بعامِلَين رئيسيَّين:

أحدُهما: الإدراكُ والوعي، أي إدراكُ الخطابِ والوعي على دلالتهِ بوصفه يحملُ معانِي فكريَّة وقِيَماً موضوعيَّة تعيِّن للشخص أُطُرَ التعاطي في العلاقاتِ للأشياء معه حسب مخرجاتها، وكيفيةَ اتصاله بها.

والآخرُ: عاملُ الإيْمانِ بالإدراك وهيمنتهُ على الوعي حضُوراً في الذهنِ وممارسةً على الجوارحِ.

وبحسب وجودِ هذَين العامِلَين وتأثيرهما، يكوِّن فهمُ الشخص على مستوى من الرُّقِيِّ أو الانحطاطِ؛ أي على مستوى من الواقعيَّة المبصرة أو الخياليَّة الواهِمة.

وأما تأثيرُ نمطِ تكوين المفاهيم على بُنية الشخصية وتقويمها للتميز، فإنه إذا عُلم ما تقدم أن المفاهيمَ تتكوَّن بالإدراك العقلي، وهو ربطُ الواقع بالمعلومات، وجولانهما في حركة الذهن من ربط المعلومات بالواقع؛ وتبلور هذا الحراك الفكري لتكوين المفاهيم من معاني الأفكار حسب القاعدة من المعتقد الذي آمن به الشخص أو القواعد التي يجري عليها قياس المعلومات والواقع حين الربط، فتتكون لديه أفهام لمعاني الحياة والأشياء بحسبها.

ومن هذا الحراك الفكري في الذهن يعقلُ الشخص الأشياء بمنظار القاعدة الفكرية، أي العقيدة التي آمن بها، فيجري حسبها عقلهُ للواقع والمعلومات حين الربط، فينشأُ عنده نمطٌ من الإدراك وطريقةٌ في الرؤية للأشياء والحياة لا محالة، فتوجد بهما للشخص عقليةٌ تفهمُ المسموع والمرئيَّ، والألفاظَ والجمل، وتدرك المعاني بواقعها المشخَّص وتصدر حكمها عليه.

وعلى ذلك، فالعقلية هي: الكيفية التي يجري عليها عقلُ الشيء، أي إدراكه وبعبارةٍ أخرى هي الكيفيَّة التي يُرْبَطُ فيها الواقعُ بالمعلومات، أو المعلوماتُ بالواقعِ بقياسِها إلى قاعدةٍ واحدة أو قواعد معينة.

ومن هنا يأتِي اختلافُ العقليات كالعقلية الإسلاميَّة، والعقلية الشيوعية، والعقلية الرأسمالية، والعقلية الفَوضَوِيَّةِ، والعقلية الرَّتيبةِ.

أما نتائجُ هذه المفاهيم فإنَّها هي التي تعيِّنُ سلوكَ الإنسان نحوَ الواقعِ المدرك، وتعيِّنُ له نوعَ الْمَيْلِ لِهذا الواقعِ من الإقبال عليهِ أو الإعراض

عنه، وتجعلُ له مَيْلاً خاصّاً وذَوْقاً معيَّناً.

أما الْمُيُولُ فهي الدوافعُ التي تدفع الإنسان للإشباعِ مربوطةً بالمفاهيم الموجودة لديه عن الأشياء التي يراد منها أن تُشبَع. وتحدِثُها عند الإنسان الطاقةُ الحيوية التي تدفعهُ لإشباع غرائزه وحاجاتهِ العضوية، والربطُ الجاري بين هذه الطاقة وبين المفاهيمِ.

وهذه الميولُ وحدَها أي الدوافعُ مربوطة بالمفاهيم عن الحياة هي التي تكوِّن نَفْسِيَّةَ الإنسان. فالنفسيةُ هي الكيفيَّة التي يجري عليها إشباعُ الغرائز والحاجاتِ العضوية. وبعبارة أخرى هي الكيفيةُ التي تربط فيها دوافعُ الإشباع بالمفاهيمِ. فهي مزيجٌ من الارتباطِ الحتميِّ الذي يجري طبيعياً في داخلِ الإنسان بين دوافعهِ والمفاهيم الموجودة لديهِ عن الأشياء مربوطةً بمفاهيمه عن الحياةِ.

ومِن هذه العقلية والنفسية تتكوَّن الشخصية. فالعقلُ أو الإدراك وإن كان مفطوراً مع الإنسان، ووجوده حتميٌّ لدى كل إنسان، ولكن تكوينَ العقلية يجري بفعلِ الإنسان. والميولُ وإن كانت مفطورةً عند الإنسان، ووجودها حتميٌّ لدى كل إنسان، ولكن تكوينَ النفسية يجري بفعلِ الإنسان.

وأيضاً لأن وجودَ قواعد أو قاعدة يجري عليها قياسُ المعلومات والواقع حين الربط هو الذي يُبَلْوِرُ المعنى فيصبِحُ مفهوماً، ولأن الامتزاجَ الذي يحصل بين الدوافع والمفاهيم هو الذي يبلورُ الدافع فيصبح مَيْلاً، كان للقاعدةِ أو القواعد التي يقيسُ عليها الإنسان المعلومات والواقع حين

الربطِ الأثرَ الأكبر في تكوين العقلية وتكوين النفسية، أي الأثرَ الأكـبر في تكوينِ الشخصية تكويناً معيَّناً.

وعلى هذا؛ فإنْ كانت هذه القاعدةُ أو القواعد التي يجري عليها تكوينُ العقلية هي نفس القاعدةِ أوِ القواعد التي يجـري عليهـا تكـوينُ النفسـية، وُجِدَتْ عند الإنسان شخصيَّة مُتَمَيِّزَةٌ بلون خاصٍّ. وإن كانت القاعـدة أو القواعد التي يجري عليها تكوينُ العقلية غيرَ القاعدة أو القواعد التي يجري عليها تكوين النفسية كانت عقلية الإنسان غَيْرَ نفسيَّتهِ، لأنه يكـون حينئـذ يقيسُ مُيُولَهُ على قاعدة أو قواعد موجـودة في الأعمـاق، فيربـطُ دوافعـه بمفاهيم غير المفاهيم التي تكوَّنت بها عقليتهُ. فيصـبح شخصـيةً لـيس لهـا مُمَيِّزٌ، مختلفةً متباينة، أفكارهُ غيرُ ميولهِ، لأنه يفهم الألفاظَ والجمل ويدركَ الوقائع على وجهٍ يختلفُ عن مَيْلِهِ للأشياء .

ومن هنا كان علاجُ الشخصـية وتكوينهـا إنَّمـا يكـون بإيجـاد قاعـدةٍ واحدة لعقلية الإنسان ونفسيته معـاً. أي أن تُجْعَـلَ القاعـدةُ الـتي يقـيس عليها المعلومات والواقع حين الربط هي نَفْسُ القاعـدة الـتي يجـري علـى أساسِها الامتزاجُ بين الدوافع والمفاهيم. فتتكـوَّن بـذلك الشخصـيةُ علـى قاعدةٍ واحدة ومقياسٍ واحد فتكون شخصيةً متميِّزة.

هذا ما تيسَّرَ من دراسة الأثرِ البنيوي للمفاهيم في تكوين الشخصـية، ولعله ينفعُ مَن يتذكرُ ويخدمُ مَن جدَّ السـيرَ للوصـول، وصـلى الله علـى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرست